الشعور الوطني عند الأندلسيين
لسان الدين بن الخطيب وابن سعيد المغربي / نموذجين

أ. أحمد خليفة مسعود عمار ـــ كلية الآداب والعلوم بدر ـ جامعة الزنتان

المقدمة :

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، والصلاة والسلام عل صفوته من خلقه ، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد

فلاشك أن للأوطان حضورا قويا وفاعلا في النفس الإنسانية ، فالوطن يرتبط بوعي الإنسان منذ نعومة أظافره ، وهو جزء لا يتجزأ من حياته ، لذلك نجده يشكل حضورا قويا عند الكثير من الشعراء ، فنراهم يترنمون بأسماء أوطان وبلدان كان لها وقع وتأثير كبير في نفوسهم ، وقد كانت الأندلس ولا تزال محط أنظار الدارسين العرب فقد عاش فيها العرب ثمانية قرون ، وأسسوا بها حضارة عريقة على مدى الحقب الزمنية التي توالى حكمهم فيها.

وإذا شئت أن تلتمس حب الوطن في الشعر العربي ، فاطلبه عند شعراء الأندلس ، فالشاعر الأندلسي ما انفك يتغن بحب الأندلس ويلهج به لسانه ، ويشيد بمحاسن بلده ، ويعبر عن التصاقه بتربته ، ويفضله على سائر البلدان[1] ؛ وقد كان هذا الارتباط بالطبيعة والبيئة الأندلسية مرآة تعكس الشعور الوطني الذي يختلج في نفوس الأندلسيين .

إن الدارس للأدب العربي يجد بوناً واضحا بين أهل الأندلس ونظرائهم من أدباء المشرق العربي ،فالعاطفة الوطنية ضعيفة في الشعر المشرقي ، لا تكاد تلمح لها خيالا ، بعكس شعراء الأندلس[2] الذين ملك منهم هذا الإقليم الألباب والأبصار بطبيعته الساحرة ، حيث السهول الخضراء والجبال المكسوة بالأشجار ، والأنهار المتدفقة ، والمياه العذبة ، والهواء العليل ، والأزهار الفواحة .

لقد كان الأندلس مضرباً للأمثال في الجمال والنظافة ومظاهر المدنية والحضارة والتقدم، لقد كان بحق ذروة الحضارة العربية الإسلامية في أوروبا، وقد فتن شعراء

الأندلس بهذا الجمال الأخّاذ فتغنوا به وكتبوا فيه الأشعار التي خلدت أسماء مدن وحواضر هذا الإقليم .

ولعل من دوافع ولع الأندلسيين بوطنهم وتوسعهم في هذا الاتجاه الأدبي ، إلى جانب ما سبق ذكره عن سحر الإقليم وجماله ، كثرة الترحال والاغتراب، فالغربة تزيد في حنين المرء لوطنه وتعلقه به ، ولهفته على العودة إليه ، فكلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم ، فزعوا إلى الشعر يبثون فيه شوقهم وحنينهم المتطلع إلى أوطانهم وأحبابهم[3] ، وقد كان معظم من رحلوا عن الأندلس من ذوي الأقلام الشاعرة .

وقد تعددت ألوان الشكوى ، فمنهم من شكا سوء الحال وظلم الحياة ، ومنهم من شكا الغربة وآلامها ، يقول أبو البقاء صالح بن يزيد الرندي مبيناً ما أصابه من حزن وألم في قصيدة تحدث فيها بحسرة بالغة عن سقوط الأندلس، في أيدي الأوروبيين وكل ذلك ، بعد أن خرج من الأندلس لبلاد المغرب ومكث في مدينة مراكش:

غريب كلما يلقى غريب فلا وطن لديه ولا حبيب

تذكر أصله فبكى اشتياقا وليس غريبا أن يبكي غريب[4]

وتأتي أهمية هذا البحث في كونه محاولة لمعرفة مدى ارتباط الشاعر الأندلسي بوطنه ،ومدى فاعلية هذا الارتباط في صياغة المعاني الشعرية .

وسوف أعرض في هذا البحث بشكل مختصر لبعض من النماذج الشعرية لشاعرين من شعراء الأندلس هما : لسان الدين بن الخطيب ، وابن سعيد المغربي .

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج التكاملي ، وهو المنهج الذي يجمع بين التاريخ ، والوصف ، والتحليل ، ويأخذ من مناهج مختلفة قديمة وحديثة في آن واحد ، وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن أبدأ أولا بالتعريف بالشاعرين ، ثم صلب البحث فالنتائج أو الخلاصة ، يليها الهوامش مرتبة حسب المتن .

والله ولي التوفيق .

1- لسان الدين بن الخطيب : 713 -776 هـ 1313 - 1374 م :

محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن علي بن أحمد السلماني الخطيب ، يكنى أبا عبدالله ، ولد بمدينة لوشة مقاطعة غرناطة ، وتوفي بمدينة فاس المغربية ، شاعر وكاتب وفقيه مالكي ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي من الأندلس .

نشأ لسان الدين في أسرة عرفت بالعلم والفضل والجاه ، وكان جده الثالث " سعيد " يجلس للعلم والوعظ ، فعرف بالخطيب ، ثم لحق اللقب بالأسرة منذ إقامتها في لوشة ، وكانت أسرة ابن الخطيب من إحدى القبائل العربية القحطانية التي وفدت إلى الأندلس ، وتأدب في غرناطة على شيوخها ، فأخذ عنهم القرآن ، والفقه ، والتفسير ، واللغة ، والرواية ، والطب[5] .

ترك ابن الخطيب آثاراً متعددة تناول فيها الأدب، والتاريخ، والجغرافيا، والرحلات، والشريعة، والأخلاق، والسياسة والطب، والموسيقى، والنبات ، من أشهرها :

ـ الإحاطة في أخبار غرناطة
ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية
ـ أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
ـ أوصاف الناس في التواريخ والصلات.
ـ كناسة الدكان بعد انتقال السكان.
ـ معاير الاختيار في معاهد الاعتبار.

2- ابن سعيد المغربي : 610 - 685 هـ 1214 - 128م:

الحسن بن علي بن أبي عمران بن محمد بن عبدالملك بن سعيد العنسي المدلجي أبو الحسن نور الدين من ذرية الصحابي الجليل ((عمار بن ياسر)) مؤرخ أندلسي، من الشعراء العلماء بالأدب، ولد بقلعة يحصب قرب غرناطة، وتوفي بتونس وقيل في دمشق[6] ترك العديد من المؤلفات في الأدب، والشعر، والتاريخ، من أشهرها :

ـ المشرق في حلى المشرق .
ـ المغرب في حلى المغرب .
ـ المرقصات والمطربات .
ـ الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة .
ـ المقتطف من أزاهر الطرف .
ـ الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد .
ـ النفحة المسكية في الرحلة المكية .
ـ نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب .
ـ وصف الكون وبسط الأرض كلاهما في الجغرافية .
ـ ديوان شعري .

خلاصة البحث :

يحدثنا التاريخ القديم عن نمط عيش العرب في الجاهلية بأنهم كانوا يعيشون في قبائل متفرقة تحكمها العصبية التي كثيرا ما أشعلت حربا لم تبق ولم تذر ، وأن القبيلة الأقوى فيهم هي القبيلة التي تمتلك إعلاما قويا يمثله شاعر مفوه يشيد بأمجادها ، ويدفع عنها أقاويل أعدائها[7] ، ومن هنا نشأت الإرهاصات الأولى للمفاضلة بين المدن، لاسيما بعد مجيء الإسلام وتبدل نمط العيش عند العرب ، من القبيلة إلى المدينة ، فضلا عن أن العصبية القبلية ظلت قائمة تتأجج من حين لآخر على نحو ما كان بين القيسية واليمنية [8] .

كان قلب الأندلسي بدءا معلقا بالمشرق – الأرض الأم – ولطالما عبر عن شوقه إليها ، ولكن سرعان ما تبدلت الأمور ، وصارت الأندلس أحب البلاد إليه لدرجة أن أصبح الخروج منها ضربا من العذاب والشقاء .

وتعلق الأندلسي بأرضه تعلقا ندر أن نجد مثيله في المشرق ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى شعوره المستمر بأنه سيفقد هذه الأرض يوما ؛ ومن أجل ذلك يتفانى في حبها[9] .

ومن هنا كانت نزعة الشعور بحب الوطن والحنين إليه قد ضربت بجذورها في أعماق الشعراء الأندلسيين ، كيف لا وهم من أكثر الناس تعلقا بأوطانهم ، لقد ضرب هؤلاء الشعراء أروع الأمثلة في حب الوطن والتعلق به ، ظهر ذلك واضحا جليا من خلال الأشعار التي نظموها ، والتي تعبر عن مدى تعلقهم بأوطانهم وحبهم لها ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى ما تتمتع به الأندلس من طبيعة خلابة وموقع جغرافي ، هذا الجمال الذي خصها به الله سبحانه وتعالى من خلال الأنهار ، والبساتين ، والرياض ، والأزهار ، والبرك والقصور ، كل هذا جعل الشاعر الأندلسي يتعلق بمدينته ، ويصورها في شعره من خلال لوحاته الشعرية الجميلة التي تعكس حبه لها ، ويزداد هذا الحب وهذا التعلق حين يكون بعيدا عن مدينته، متنقلا بينها وبين مدن أخرى بشكل قسري أم طوعي .

كانت البدايات الأولى لظهور نزعة الشعور بحب الوطن والحنين إليه في الأدب الأندلسي على يد الأمير الأموي عبدالرحمن الداخل، الذي عبر عن حنينه إلى المشرق، وهذا لسان حال كل المشارقة الذين دخلوا الأندلس، فقد كانوا مشدودين إلى وطنهم الأم بكل شوق وحنين رغم طبيعة الأندلس التي يمكن أن تنسي الإنسان وطنه وذكرياته . [10]

واستمر ذالك الشوق والحنين للوطن على ألسنة الشعراء من خلال ما نظموه من قصائد عبروا من خلالها عن شوقهم وحنينهم إلى وطنهم، سواء أكانوا داخل الأندلس أم خارجه، وتطور هذا الشعور طوال الفترة التي حكم فيها العرب الأندلس، خاصة حين تدهورت الأحوال السياسية، وزادت هجمات النصارى على المدن الأندلسية، وترك أهلها لها والنزوح عنها، كما ازدادت الهجرة والنفي عن الوطن، والهروب منه إلى حيث الأمن والاستقرار . (11)

هذه هي الحال التي كانت عليها الأندلس والتي دفعت الشاعر إلى الرحيل عن الوطن، سواء بإرادته فراراً من الظلم والاضطهاد، أو قسراً بإبعاده عن وطنه لأسباب سياسية .

ومن الراحلين عن أوطانهم الشاعر الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، وإن كانت غربته عن وطنه لم تتجاوز الأندلس، فقد قضى غيبته عن وطنه في جبل الفتح قريباً من غرناطة(12)، إلا أنها كانت كفيلة بتحريك جذوة الشوق والحنين في نفسه حيث تربطه بوطنه علاقة قوية، بدت واضحة من خلال شعره الذي تغنى من خلاله بجمالها وروعتها، فكيف لا يحن إليها إذا ابتعد عنها، فهاهو يعبر عن شوقه لغرناطة عند غيابه عنها، وكأنها صارت جزءاً من ذاته أو حاجة ماسة من حاجات نفسه يقول : (13)

سَلُوا عنْ فُؤادي بُعدكُم كيْفَ حالِه وقد قوّضتْ عِنْدَ الصّبَاح رحالُهُ
ولا تحسْبُوا أنّي سلوْت على النَّوى فسلْوان قلْبي في هَواكم محالُه
وما حالُ من شطت بغرْبٍ ديارهُ وفي الشّرق أهلَه، وتمَّ حلالُهُ

كما عبر ابن سعيد المغربي ـ أيضاً ـ عن معاناته نتيجة غربته وبعده عن غرناطة، وحنينه إلى أيام شبابه وأُنسه فأبكاه ذلك شوقاً وحنيناً إليها، ويتمنى لو تعود تلك الأيام ؛ لأن أي غريب لا يمكن أن يحس بأي سعادة بعيداً عن وطنه، يقول في ذلك (14) :

يا نسيماً منْ نحو تلك النواحي كيف باللّه نوْرُ تلك البطاح
أسقتها الغمامُ ريّاً فلاحت رداءٍ ومئزرِ ووشاح
آهٍ مما لقيتُ بعدك من همٍ وشوْقٍ وغربة وانتزاح
أسهرُ الليل لستُ أُغفْي لصبح أترى النومُ ذاهباً بالصَّباح
إن يوم الفراق بدّد شمْلي طائراً ليْتهُ بغير جناحِ

وليس غريباً، والحال تلك، أن يبالغ الأدباء في وصفها وتفضيلها على بقاع الأرض جميعاً؛ يقول المقري ((محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة، ومجاري فضلها لا يشقُ غباره، وأنى تجارى وهي الحائزة قصب السبق في أقطار الغرب والشرق))[15]، ولا نعجب إذا رأينا من يختصر مدن العالم كلها في الأندلس فهي ((شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها. فيها آثار عظيمة لليونانيين، أهل الحكمة وحاملي الفلسفة))[16].

أما الشعراء فقد أفاضوا في تفضيل الأندلس على سائر البقاع، فهذا ابن خفاجة لا يرى الجنّة إلا فيها، إذ يقول : [17]

يا أهل أندلسٍ لله دَركُمُ ماءُ وظلٌ وأنهارُ وأشجارُ
ما جنّة الخُلْدِ إلا في دياركُم وهَذه كُنتُ لوْ خُيّرتُ أختْارُ

وقال ابن سفر المريي[18] :

فيها خلعْتُ عذاري ما بها عِوض فهي الرّياضُ وكلّ الأرضِ صَحْراء

وإذا كانت هذه حال الأندلسي العاشق لبلاده المتيم بحبها، فماذا عمّن رزئ بالبعد عنها عنوة وغصباً ؟ كالذي أصاب لسان الدين بن الخطيب (776هـ)[19].

إذ أُبعد ونفي، فقصد المغرب ونزل بسلا، إلا أنّ فؤاده ظل أبداً معلقاً بأرضه الأم، غرناطة، يقول : [20]

ترى هل يعود الشمل كيف عهدته ويبلغ قلبي ما اشتهى وينالهُ
سقى الله في غرناطة متبوئاً غماماً يروي ساحتيها سجاله
وربعاً بحمراء المدينة آهلاً أنيطت على بدر السماء حجاله

وإذا كان ذكر الديار والحنين إليها أمراً شائعاً بين الشعراء، فإن الغريب فعلاً أن يمدح الغريب بلده الأم، ويفضلها على البلاد التي آوته، ذاك ما فعله ابن الخطيب الذي كتب مقامة فضّل فيها مالقة على سلا تعصباً لها، وتحيزاً لوطنه فهو لا يرى في الدنيا ما يفضل الأندلس أو يساويها[21] .

ويبدأ ابن الخطيب بالثناء على مالقة، وبأنه لا مجال للمقارنة بينها وبين سلا فهي أرفع قدراً وأشهر ذكراً، وأبعد التماساً من أن تفاخر أو تطاول[22] ، ويبرر ابن الخطيب تحيّزه لمالقة على أساس شروط لا تتوفر عليها سلا وهي ((الأمور التي تتفاضل بها البلدان، وتعرفها حتى الولائد والولدان : المنعة، والصنعة، والبقعة، والشنعة، والمساكن، والحضارة والعمارة))[23]، أما المنعة فلمالقة – حرسها الله –

فضل الارتفاع ومزية الامتناع؛ أما قصبتها فاقتعدت الجبل كرسياً، ورفعها الله مكاناً علياً .

وسلا على ما علمت سور حقير وقور إلى التجنيد والتشييد فقير، فالمنعة إذن لصالح مالقة ذات الحصون المنيعة والأبراج المرتفعة، أما سلا فلا حظ لها من ذلك كله. ويصل إلى الثانية وهي الصنعة، يقول : ((مالقة – حرسها الله – طراز الديباج المذهب، ومعدن صنائع الجلد المنتخب، وصنعاء صنائع الثياب، ومحج التجار إلى الإياب، وأي صناعة في سلا يقصد إليها، أو يعوَل عليها... أو يتجمل بها في عيد ؟))[24]، فالصنعة كذلك حازتها مالقة. وتأتي النقطة الثالثة وهي البقعة وعنها يقول : ((خص الله مالقة بما افترق في سواها، ونشر بها المحاسن التي طواها، إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال. وسلا بلد الرمال ومراكب الجمال، بطيحة لا تنجب السنابل، وإن عرفت المطر الوابل))[25] .

أما عن الشنعة فعنها قال : ((مالقة دار الملك في الروم، ومثوى المصاعب والقروم، وذات ملك في الإسلام، غني بالشهرة عن الإعلام، سكنها ملوك الأدارسة الكرام والصناهجة الأعلام، ثم بنو نصر أنصار الإسلام وأين سلا من هذه المزية والشنعة العلية ؟))[26] .

فابن الخطيب فضّل مالقة على سلا تفضيلاً كليّاً، وهو يرى نفسه موضوعياً غير متحّيز فهذه ((حجج لا تدفع، ودلائل إنكارها لا ينفع))[27] .

ومن باب الوفاء رأى أن يطيّب خاطر سلا ببعض الكلام الطيب فقال: ((ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب؛ إذ لا ينكر فضل اعتدالها وأمنها من الفتن، ومدفن الملوك الكرام بجبالها))[28] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن الخطيب، وعلى الرغم من حبه لبلاد المغرب ولمدينة سلا بالذات التي لجأ إليها في أوقات محنته، فإن شعوره الوطني جعله يتغاضى عن كل هذه الاعتبارات، ويتحيز إلى المدينة الغرناطية، فيجعلها مفضّلة على الدوام، وهو شعور قد يرجع إلى روح المنافسة التقليدية القديمة التي كانت سائدة بين الأندلسيين والمغاربة[29] ؛ وابن الخطيب لم يكن لينقم على بلاده نظير محنته تلك فهو كما قال الشاعر الشريف قتاده أبو عزيز :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزةُ وأهلي وإن ضنوا عليّ كرامُ [30]

وقد قاسم ابن الخطيب في هذا الشعور غير واحد من أدباء الأندلس الذين عانوا المنفى والغربة، عموماً، ومما زاد الأندلسي تعلقاً ببلاده، حلّه وترحاله؛ إذ كان

يقارن بينها وبين الأندلس فيجد الفرق شاسعاً والبون واضحاً فيزداد حنينه لوطنه، ومن هؤلاء ابن سعيد المغربي (ت 685 هـ)، فبحكم رحلاته الكثيرة التي ولّدت لديه شعوراً مستمراً بالغربة، راح يسترجع ذكرياته بالأندلس ويقارن بينها وبين بلدان المشرق التي حطّ الرحال بها، على أنه يجب التنويه بأن ابن سعيد لم يتخذ التعصب لبلاده عنواناً، وإنما كما قال : ((لم تزل البلاغة في كل عصر بالمشارق والمغارب... والمنصف من أطال عنان الاختبار دون اقتصار، ولم يخص بالفضيلة عصراً من الأعصار، ولا مصراً من الأمصار))[31]. ولعله أراد، بهذا الكلام، أن يبيّن توجّهه المحايد والموضوعي في الحكم على الأمصار، مشرقها ومغربها، ولكن هذا لا يعني بأي حال أن يلتزم الصمت أمام من يُعّرض ببلاده، أو ينتقص من قدرها، ويؤيد هذا قوله : ((والمناظرة بين المشرق والمغرب تحتمل كتاباً، وقد صنّفته بالشام لضرورة دعت إلى ذلك من شدة اتخاذ المشارقة على المغاربة من كل جهة)) ... وسّميت الكتاب الذي وضعته في ذلك ((الشهب الثاقبة في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة))[32] .

وابن سعيد في هذا الكتاب يعتمد على المقارنات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، ويتجنب إطلاق الأحكام الذاتية التي لا تستند إلى أساس، وهو بذلك لا يتردد في ذكر فضائل المشرق، في تفضيله على المغرب في بعض الأمور[33] .

وابن سعيد لم يفّرق بين الأندلسيين والمغاربة ابتداء من عنوان كتابه ((الشهب الثاقبة))، حيث جمع فيه العدوتين تحت مصطلح (المغاربة)، ولم يترفّع عليهم بقلانس ((الأندلسيين))، ولم يذم أحداً، وإنما انتقد أوضاعاً رآها، ـ على الأقل في هذا الكتاب ـ ، عملاً بما التزمه[34] .

ولا يعبر هذا عن ضعف ارتباطه وتعلقه ببلاده، بل على العكس تماماً فمتى استشعر ازدراء لوطنه هبّ منافحاً مدافعاً، ومن ذالك ردّه على ابن حوقل[35] الذي وصف الأندلس قائلاً : ((ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال))[36] ، ولعمري إنه لوصف للعبيد أقرب، فقد سلب ابن حوقل أهل الأندلس كل مزيّة، ونسب إليهم كل نقيصة، فردّ ابن سعيد قائلاً : ((ليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة، فمن الذين دبّروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين

لها من خمس مئة سنة ونيّف ؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها ؟

وإني لآعجب منه إذ كان في زمان قد دلفت فيه عبّاد الصليب إلى الشام والجزيرة، وعاثوا كل العبث في بلاد الشام، حيث الجمهور والقبّة العظمى، وفعلوا فيها ما فعلوا، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة[37] .

من أجل ذلك تعجّب ابن سعيد من ابن حوقل الذي ازدرى الأندلس وأهلها، وكان حريّاً به أن يزدري بلاد الشام التي تكالب عليها العجم من كل جهة، فعاثوا فيها فساداً، لم يمنعهم في ذلك توسطها بلاد الإسلام، وعلى العكس من ذلك فإن الأندلس ظلّت قائمة صامدة أمام كل محاولات العدو، على الرغم من وجودها وحيدة منفردة تتربصها الأعين بلا كلل .

ويمضي ابن سعيد في المفاضلة بين مدن الأندلس وغيرها من الأمصار التي زارها، بناءً على موقعها الجغرافي وحظها من الحضارة والعمران، ومنها قوله : ((ولقد تعجّبت – لما دخلت الديار المصرية – من أوضاع قراها التي تكدّر العين بسوادها، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها، وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش، وهي في نهاية من الحضارة والنضارة))[38] .

ثم يفصّل ابن سعيد في الأمر فيقول : منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في برّ العدوة، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة، ثم طفت في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلب وما بينهما، لم أر ما يشبه الأندلس))[39] .

فابن سعيد يجزم بأنه لا توجد مدينة – من تلك التي زارها – تفضل الأندلس، غير أنه يستثني من ذلك وجود شَبهٍ طفيف في فاس ومراكش ودمشق من حيث نضارة الأشجار وجمال التشييد .

ومع ذلك فنحن لا نجد في كلام ابن سعيد انتقاصاً أو ازدراءً لبلاد المشرق، كما فعل ابن حوقل، ومثلما ردّ ابن فضل الله العمري (ت 749هـ) على (الشهب الثاقبة) فقد غالى في تعصبه، فقال : ((وكيف تستوي بلاد جنوبها الهند ؟ وهم أهل العلم والحكمة، مع صفاء الألوان، وحسن الصورة وكمال التخطيط ... ببلاد جنوبها حثالة السودان؛ المحترقة ألوانهم، المشوهة صورهم، المختلفة تخاطيطهم، غاية

الجهالة، والنفوس الرخيصة، لا عقول لهم ولا أفهام، هم أقرب شبهاً من بني آدم بالأنعام ...))[40] .

وفي كلام العمري تجنّ واضح على بلاد لا ناقة لها ولا جمل فيما يدور بين المشرق والمغرب، ثم كيف يعيّر الأندلس بألوان وأشكال جيرانها؟!

وليس غريباً فقد درج المشارقة على امتهان المغاربة[41]، ووصفهم بأحقر الصفات التي لا تليق إلا بالعبيد، كقولهم : ((وهل وصل إلى الغرب من السؤدد، إلا ما فضل عن الشرق، أو ليس إلا ما أعاره من الخليع المبتذل؟ لمّا دخل عبد الرحمن الداخل إلى جزيرة الأندلس، واجتمع إليه من شذاذ القوم من نفضتهم مزاود المشارق، ولمظتهم أسرة الملك، فحينئذ صار الناس بالغرب ناساً، وإلا كانوا كالبهائم السائبة، فمن ذلك الوقت تكلموا باللغة العربية، وامتازوا بالنطق على الحيوان[42]، ونحن نظن أنّ حنق المشارقة على بلاد الأندلس مردّه إلى طبيعة الحكم، ففي الأولى كان عباسياّ وفي الثانية أمويّاً خالصاً، وصحيح أن العباسيين قضوا على الأمويين في المشرق، ولكن هذا لم يمنع بناء دولة أموية قوية في الأندلس، على يد أحد الفارين من قبضتهم، ضاهت بغداد أيام عزها واستمرت كذلك بعد اندثارها .

ولو وضعنا ابن سعيد والعمري في كفتّي ميزان لوجدنا الأول أقرب إلى الإنصاف من الثاني، ذلك أن ابن سعيد المغربي أقرّ بفضائل المشرق في عدة مواضع منها : تفرده بأخبار أصيلة كبيان فضائل جند المشارقة وتفوقهم على جند المغاربة، وقد ساقته موضوعيته فيه إلى التشهير بفرسان الأندلس))[43]، على حين قال العمري : ((إن كان لبعض ملوكهم المغاربة تلذذ، فلعله لا يبلغ مالبعض سوقة المشارقة، والمغاربة لا لهم ظاهر ولا باطن))[44] .

إن ابن الخطيب – كما سبق – فضّل مالقة على سلا بما يعني تفضيل الأندلس على المغرب، مع أنها احتضنته مدة نفيه، وابن سعيد فضّل الأندلس ومعها المغرب على المشرق، رداً على من انتقص منهما واحتقرهما، كل ذلك في اعتدال وحسن أدب وحوار، وقد حقّ لمن عفّر وجهه بتراب الأندلس أن يفضلها على سائر البلدان[45] .

نتائج البحث :

خلص البحث إلى مجموعة من النتائج بناءً على دراسة سيرة وأشعار بعض شعراء الأندلس كلسان الدين بن الخطيب وابن سعيد المغربي ، وجاءت على النحو التالي :

1- أن تعلق الأندلسيين بأوطانهم ومحبتهم لها ظهرت واضحة جلية من خلال تعابير وقصائد شعرائهم .

2- جمال الأندلس وطبيعته الساحرة من أهم أسباب تعلق الأندلسي بوطنه، وارتباطه به .

3- مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، ومظاهر المدنية والتقدم فتنت أبناء الأندلس وشعرائه، فتغنوا بجماله، وكتبوا فيه أشعارهم التي خلدت أسماء مدن وحواضر هذا الإقليم .

4- تدهور الحياة السياسية، وعدم الاستقرار، وكثرة الحروب في الماضي، دفعت الأندلسي إلى الخوف عن بلاده، وزادت من شعوره المستمر وكأنه سيفقد هذه الأرض يوماً، ومن اجل ذلك فهو يتفانى في حبها ويعبر عنه .

5- يغلب على حياة الأندلسيين كثرة الترحال، والاغتراب، فالغربة تزيد من حنين المرء لوطنه وتعلقه به، ولهفته على العودة إليه .

هوامش:

1- أدباء العرب في الأندلس وعصر الإنبعاث، بطرس البستاني، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص78-79 .
2- المرجع نفسه، ص79 .
3- ينظر الأدب العربي في الأندلس . عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط/1995، ص273.
4- ينظر : الإحاطة في أخبار غرناطة .لسان الدين بن الخطيب، تحقيق / بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، ط2009، ج3 . ص37 .
5- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد محمد المقري، شرح وتحقيق : مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج6، ص312 .
6- الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15 2002م، ج5، ص26 .
7- المستطرف في كل فن مستظرف . بهاء الدين الأبشيهي . دار مكتبة الحياة . بيروت . لبنان . ص136.
8- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ابن بسام . تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . لبنان . 1997م . ص113.
9- الغربة والحنين في الشعر الأندلسي . فاطمة طحطح . دار الثقافة . الرباط . ط1 . 1993م . ص243 .
10- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، د. أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، ط7، ص90 .
11- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق : عبد الوهاب النجار، دار الطباعة المنيرية، القاهرة، ج2، ط1938، ص156 .
12- الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، فاطمة طحطح، ص336 .
13- ديوان لسان الدين بن الخطيب، محمد مفتاح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، دار البيضاء، 1989، ص57 .
14- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق د. شوقي ضيف، دارا لمعارف، مصر، 1976 ، ص35 .
15- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري، شرح وتحقيق : مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ج1، ص127 .
16- نفح الطيب، المقري، ج1، ص129 .
17- ديوان ابن خفاجة، عمر فاروق الطباع، دار القلم للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ص36 .
18- نفح الطيب، ج1، ص202 .
19- المصدر نفسه، ج7، ص5 .
20- الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، فاطمة طحطح، ص341 .
21- ينظر : مسالك الأبصار في ممالك الأنصار، ابن فضل الله العمري، تحقيق : محمد خريسات، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، ط4، ص145 .
22- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، أحمد مختار عبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ط1983، ص57 .

23- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، أحمد مختار عبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ط1983، ص57 .
24- المصدر نفسه، ص59 .
25- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، أحمد مختار عبادي، ص60 .
26- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، أحمد مختار عبادي، ص60-61 .
27- المصدر نفسه، ص65 .
28- المصدر نفسه، ص66 .
29- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، ص11.
30- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق : عبد الوهاب النجار، دار الطابعة المنيرية، القاهرة، ج2، ص38 .
31- عنوان المرقصات والمطربات، علي بن موسى بن سعيد المغربي، تحقيق : مصطفى سلامة النجاري، جمعية المعارف، الرباط، 1986هـ، ص3 .
32- التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في آثار ابن سعيد المغربي ورحلاته المشرقية وتحولاته عصره، محمد جابر الأنصاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992، ص137 .
33- التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في آثار ابن سعيد المغربي ورحلاته المشرقية وتحولاته عصره ، ص138 .
34- نقلاً عن : ابن فضل الله العمري في رده على الشهب الثاقبة، جاسم العبودي، مجلة الحوار المتمدن، العدد 17، ص38 .
35- هو أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي، صاحب كتاب صورة الأرض.
36- صورة الأرض، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، 1992، ص104-105.
37- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج1، ص204 .
38- نفح الطيب، المقري، ج4، ص198 .
39- المصدر نفسه، ج4، ص201 .
40- ابن فضل الله العمري في رده على الشهب الثاقبة، ص40 .
41- مفاخر البربر، مؤلف مجهول، تحقيق : عبد القادر بوباية، دار ابي رقراق، الرباط، ط1، 2005، ص31.
42- مفاخر البربر، مؤلف مجهول، تحقيق : عبد القادر بوباية، دار ابي رقراق ، ص32 .
43- نقلاً عن مقدمة كتاب فضل الله العمري في رده على الشهب الثاقبة، ص41 .
44- مسالك الأبصار في ممالك الأنصار، ابن فضلا الله العمري، ص147 .
45- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق : بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات، الجزائر، 2009،